الموضوع السيميائي
ولعبة المعنى

نصر الدين بن غنيسة
الجزائر
benghenissan@gmail.com

Received: 15 Nov. 2013,
Revised: 15 Dec. 2013, Accepted: 30 Jan. 2014
Published online: 1 May 2014

الموضوع السيميائي
ولعبة المعنى

نصرالدين بن غنيسة
الجزائر

الملخّص

يعد هذا المقال ترجمة للدراسة التي تتناول بإيجاز الإشارة واللغة بشكل عام. وهو يسلط الضوء على مفهوم إشكالية الكائن السيميائي. حيث يبدأ وينتهي هذا الكائن بوصفه نهجا، إما من الخارج عن طريق دمج محور نموذجي ومحور syntagmatic، أو من الداخل بعدّه لعبة تركيبية ودلالية متشكلة من المكونات الصغرى، والتي تحيل إلى مكونات لموضوعات سيميائية أخرى.

ومن وجهة النظر هذه، كل المعارف، وكل الثقافات، وكل الأحداث، وكل الحياة، فردية كانت أم اجتماعية، مرتبطة بالبحث عن المعنى الذي يبدو أن الإنسان قد جُبِل عليه. كما نرى جيدا أن كل العلوم (إنسانية أو غير إنسانية)، كل المعارف هي علوم تسعى إلى البحث عن الدلالة، وعن المعنى، وعن "طريقة سير" ذواتنا وسير العالم الخارجي: وهو ما يميز علوم اللسان والسيميائية، على الخصوص، عن حقول البحث الأخرى.

الكلمات المفتاحية: الإشارة ، اللغة، السيميائية، دلالة، علوم اللسانيات، محور نموذجي.

Semiotic object and game sense

French translation of part of chapter “what is a semiotic object” of the book “ Semiotics of language”, Joseph Courtés, Armand Colin, 2005, Paris, p.08-22

Benghenissa Nacer eddine
University of Biskra – Algeria

Abstract

This article is a translation of a study that addresses briefly the sign and language in general. It highlights the problematic notion of the semiotic object. Where it begins and ends as a semiotic object. As an approach, the article propose two perceptions: either outside by integrating the paradigmatic axis and the syntagmatic axis, or from inside by returning its components to other semiotic objects.

Furthermore, no semiotic analysis is possible only if it involves an essential opposition discrete vs. continuous. Here are two possible approaches: either we share the discreet and we are moving towards a form of order continuous, or it is placed at the outset that first there was continuous, and that any semiotic analysis must articulate it, break it down into discrete units between which we will recognize a number of relationships.

Keywords: signs, language, semiotics, significance, Science Linguistics, syntagmatic.

الموضوع السيميائي

ولعبة المعنى

نصر الدين بن غنيسة
الجزائر

ما "الموضوع السيميائي"؟:

من الأهداف المعلنة للسيميائيات–وهي اختصاص جديد سنحدد نطاقه تدريجيا- عرض لعبة المعنى أو الدلالة في مواجهة الموضوع السيميائي المقترح عليها: قد يتجلى هذا "الموضوع" – على مستوى الإدراك الحسي- بشكل لساني (شفوي أو مكتوب) أو غير لساني (في حالة المرئي، على سبيل المثال، ولكن أيضا اللمسي، وحتى الشمي أو الذوقي)، ويمكن لهذا الموضوع أن يتأتى من البنيات الذهنية.

إن الدرس السوسيري القائل (أن لا وجود في اللغة إلا للاختلافات) يجعلنا نعتقد، من غير شك، أن إدراك المعنى في حالة مواجهة "موضوع سيميائي" ما، لا يتأتى إلا بالقدر الذي نميز فيه بين الوحدات الدالة الثابتة التي يمكن أن نتعرف عليها في ذاتها وبين متغيراتها وفق سياقات معينة، بالطبع لا يتأتى ذلك إلا إذا حافظنا على المستوى نفسه من التحليل: كما هو الشأن، على سبيل المثال، في تصريف الأفعال في الفرنسية.

إن هذا الأمر يثير، من البدء، تساؤلا ساذجا بالكلية، **ما الموضوع السيميائي؟** كيف لنا أن ندركه؟ كيف لنا أن نحدده؟ للوهلة الأولى، يبدو الموضوع السيميائي متعلقا بتصور دلالي كلي ينحو باتجاه عالم المدلول (= ما يتم فهمه من طرف القارئ، المتفرج، الخ.، أي المرسل إليه أو المتلفظ له)

فالصعوبة الأولى التي تبرز حين نود القيام بتحليل ما، هي ألا نقع في نوع من الذاتية غير المضبوطة فيما يخص التحديد الملموس للموضوع السيميائي. فإذا أخذنا حالة "المحادثة"، مثلا، فالأكيد أن لهذه الأخيرة، على الأقل بداية ونهاية، إلا إذا واصلناها لاحقا، ولكن في كل الحالات، نتفق على أن محادثة ما هي نسبيا مجموع مغلق. وكذلك، كل صورة بصرية، مثال الصورة أو اللوحة الزيتية، فإن لكل منهما إطارا واضحا يصلح لأن يسيج "الموضوع السيميائي".

لنأخذ الآن حالة مختلفة تماما من مجال آخر، إنها حالة القصص القصيرة لغي دو موباسان، مثل انتقام التي درسناها في كتابنا "تحليل سيميائي للخطاب، من الملفوظ إلى التلفظ" (دار هاشيت، ١٩٩١، ١٩٩٧، ٢٠٠١): هل لنا أن نعدّ كل واحدة من هذه القصص موضوعا سيميائيا مستقلا، أم على العكس، علينا أن نضعها ضمن هذا الكل الأكثر رحابة، والمتمثل في الحكايات والقصص القصيرة لهذا الكاتب والتي ستكون فقط أحد عناصرها المكونة؟

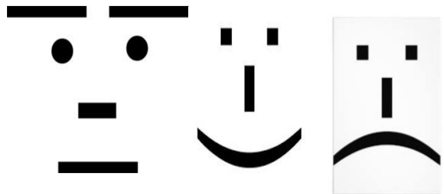
إذن من أين يبدأ وأين ينتهي "موضوع سيميائي" ما؟ هنا تطرح بشكل موسع مسألة **التناص** (والحق يقال، يمكن نؤول هذا المصطلح بكلمة **تلفظ**). هل تشكل حكايات وقصص موباسان كلا منغلقا على نفسه، أم أن فهمها يتطلب وضعها ضمن كل أعمال هذا المؤلف (والتي تصبح بدورها موضوعا سيميائيا أكثر اتساعا)؟ ثم، أليس من (الأجدر) بنا أن نوسع، أيضا، من هذا الإطار لنضم وندمج أعمال موباسان ضمن الكتابات الأدبية، من نفس الجنس الأدبي، لمؤلفين آخرين ينتمون لنفس الفترة، الخ. في الحد

الأقصى، فإن كل الأدب، على سبيل المثال، يمكنه أن يتشكل كموضوع سيميائي. من حقنا أن نتساءل، والحال هذه، أين علينا أن نتوقف، إذن؟

في الواقع، حين نتحدث عن موضوع سيميائي، فإننا نماثله، افتراضا، بكلٍّ معطى، وبدقة أكثر، بكل مجموع دال، بداهة، و محدد (بشكل) جيد (على الأقل اعتباطا)، آخذين بعين الحسبان ليس فقط المدلول (أو **مستوى المضمون**، بمصطلح لويس يلمسلف)، ولكن أيضا الدال (ونعني به الحامل السمعي، البصري، اللمسي، الشمي أو الذوقي المتعلق بالموضوع) الموافق لمستوى التعبير عند لويس يلمسلف. من وجهة النظر هذه، يمكننا أن نتحرك وفق رؤية أكثر «موضوعية».

والأمر ذاته ينطبق على المجال البصري. فحين نأخذ الثابت (على سبيل المثال، تمثيلا كاريكاتوريا لـ«الوجه» الإنساني في الخطاطة التي أدناه)، يكفي أن نغير وضعية و/أو شكل الخطوط الممثلة لـ "عينين" و "الفم" لكي، وبشكل متلازم، تتغير الدلالة (المعطاة، أسفل الصور، في شكل ألفاظ لسانية).

في هذه الحالة، فإن الثابت لا يعني، على مستوى الدال، الصورة البسيطة، ولكن مجموع المشَكّلات البصرية المتمفصلة: (أي) نوع من التصويرية، في مستوى التعبير، المتعلقة بـ "الرأس" و"العنق"؛ (بينما) تتعلق المتغيرات بوضعية وشكل القسمات البصرية الأخرى. نرى، على سبيل المثال، أن الدال برودة الانفعال يتضمن المشَكّلات (أي تلك الخطوط المنفصلة والموزعة على مستويات مختلفة للتعبير عن "العينين" أو الفم) المرتبطة بـ/الأفقية/، بينما في حالة البشاشة أو الحزن، فإن الفم، مثلا، يكون في شكل منحن، ويتحدد ذلك وفق وجهة (أعلى/أسفل) ونقيضتها (ونفس الأمر بالنسبة للعينين حيث إن تموضع القسمات البصرية، في خطوط مائلة، في حال "البشاشة" يناقض تموضعها في حال "الحزن")



حزين بشوش لا مبالٍ

إذا عددنا رسمنا الصغير ككل دال، فالموضوع العام قد يكون **الحالات النفسية**. في موضع آخر، على سبيل المثال المحادثة، فإن الموضوع العام "هو" ما نتحدث عنه. في المجال السياسي- الاقتصادي، قد يكون الموضوع العام، من بين عدة مواضيع ممكنة، هو "الإقصاء الاجتماعي" (مع كل مظاهره الواقعية المختلفة و التي يمكن أن تدركها حواسنا)، الخ. باختصار، يحسن بنا، أثناء التحليل السيميائي، أن نختار موضوعا محددا بشكل جيد: في الحالة العكسية، نوشك أن نسقط في مقاربات عامة إلى درجة أن أية نتيجة صارمة (نخلص إليها) لا يمكنها أن تجلب اعتراف العائلة العلمية دونما أن تلقى اعتراضا.

بيد أنه في مستوى التأويل، لا يتوقف الموضوع السيميائي عند نقطة ما، فهو دائما يحيل على شيء آخر (مثلما هو حال القاموس حيث الحركة الدائرية للكلمات تفرض نفسها بشكل ضروري: فكل كلمة يتم وصفها بكلمات أخرى، هي الأخرى بدورها تكون موضوع تعريفات، وهكذا دواليك)؛ وهذا ما ندعوه بـ "**السيرورة السيميائية غير المحدودة**". بعبارة أخرى، فالموضوع السيميائي ليس، على الإطلاق، منغلقا على نفسه بشكل كلي، مثلما سنراه حين عرض ملاحظاتنا عن التلفظ، حتى وإن كان لنا الحق، من ناحية منهجية، أن نتناوله كمعطى مستقل، محصور بشكل جيد.

في هذا المقام، تتبدى لنا وجهتا نظر ممكنتان؛ إذ بإمكاننا أن ندرك الموضوع السيميائي إما:

أ)- من الخارج: وفي هذه الحالة، تتم معالجته إما

-ككيان معطى إزاء كيانات أخرى محتملة (نتبنّى هنا وجهة نظر **استبدالية**: إنه محور

الانتقاء حسب إميل بنفنيست): في رسمنا، يمكننا أن نقابل بين برودة المشاعر والبشاشة والحزن؛ وإما

-أن نتناول الموضوع في علاقاته التركيبية مع كيانات أخرى قابلة للمقارنة (إنه محور "الترتيب")؛ يمكن أن يناسب ذلك، مثلا، في النحو التقليدي، المقابلة بين **الصرف** (مورفولوجيا) (دراسة الكلمات وتشكلها) و**النحو** (تحليل الصلات بين الكلمات، وأيضا بين المركبات الاسمية والفعلية في الجملة). في رسمنا، الأمر يتعلق بتحول موجه: إنه الانتقال من برودة المشاعر إلى البشاشة ثم إلى الحزن (وفق قراءة الرسم انطلاقا من الشمال إلى اليمين).

ب)- من الداخل بعدّه لعبة تركيبية ودلالية متشكلة من المكونات الصغرى (والتي تحيل على مكونات لموضوعات سيميائية أخرى: في رسمنا، لعبة الخطوط المستقيمة والمنحنية، وتوزيعها الأفقي أو المائل، الخ.

فضلا عن ذلك، لا يمكن لأي تحليل سيميائي أن يقوم إلا على التقابل الجوهري:[١] متصل مقابل منفصل، والتي سنعود إليها بالتفصيل لاحقا. وينطبق هذا الأمر على العلوم كلها، سواء أكانت دقيقة أم تقريبية.

هنا، مقاربتان ممكنتان: إما أن ننطلق من المنفصل (بعدّه افتراضات ابتدائية) ونتوجه نحو شكل من انتظام المتصل (وهي أطروحة تجد لها رواجا اليوم إلا أنها تفتقر إلى منهجية مناسبة لوضعها موضع التنفيذ)، وإما أن نفترض ابتداء المتصل حيث يتولى التحليل السيميائي مفصلته وتفكيكه إلى وحدات منفصلة أين نتعرف من خلالها على العلاقات التي تربط بينها، وهو ما قمنا به بمعية غريماس استنادا إلى فرضية كلود ليفي ستروس في الحقل المنهجي: وقبله دوسوسير و يلمسلف اللذين يتموضع جهدهما في هذا الإطار؛ إذ ينطلق من سلسلة لفظية متصلة (من وجهة نظر صوتية) لتحليلها إلى عناصر منفصلة، وموزعة على مستويات مختلفة (مثال التمفصل المزدوج للساني الفرنسي أندريه مارتينه).

إن خيارنا المنهجي هذا ليس مرتبطا بدراسات كبار اللسانيين والأنتربولوجيين فقط، وإنما أيضا بأعمال جان بياجيه الذي يوضح، في مجال علم النفس، كيف أن الطفل الصغير ينفصل تدريجيا أولا عن كل ما ليس هو، ثم كيف يمضي قدما في مفصلة العالم الخارجي بعدّه وحدات منفصلة.

٢-مقاربة "سيميولوجية" و/أو "سيميائية" للغة:

١.٢. اتصال ودلالة:

علينا ألا نحوّل مصطلح السيميائية إلى أقنوم، بله علينا ألا نرى فيه إشارة إلى «علم» حقيقي: إذ من الجليّ أن الأمر ليس كذلك، مثلما سنشير إليه مرات عدة أثناء تقدمنا في الطرح: كما هو معلوم في علوم اللسان، ليس بالإمكان مطلقا أن نعمل في الواقع إلا في إطار من "التجريب"، أو من "العمل الارتجالي- الاقتطاف" الذي رُدّ إليه الاعتبار، منذ سنوات عديدة، في العلوم الإنسانية، من طرف كلود ليفي ستروس[□].

١- يجد هذا التقابل أصولا ضمن المعارف الرياضية، قديما عرفت الرياضيات بأنها « علم المقدار المتصل والمنفصل "أو هو علم" الكم "وعلى تلك كان ينظر إلى الحساب والجبر على أنهما يتناولان دراسة الأعداد والعمليات عليها، وإلى الهندسة على أنها مختصة بدارسة النقط والخطوط والأسطح والأحجام والعلاقات بينها. هذا يدل على أنها جميعا تتعلق بالمقدار المتصل والمنفصل؛ فالكم المنفصل كما في الأعداد وهي موضع اهتمام الحساب أو كما في حروف اللغة التي تستخدم الرموز في التعبير عن كم غير محدود وهو موضع اهتمام علم الجبر، أما الكم المتصل فهو ما يتعلق بالمكان والزمان أو تتعلق بمعنى الحركة بأشكالها المختلفة وهو الأقلية ونظرية المجموعات المجردة وجبر المنطق. (المترجم)

□- يعيد الأنثروبولوجي كلود ليفي ستروس، الاعتبار للعمل الوحشي، أو الاقتطاف الذي يعرفه القاموس بأنه الأشغال اليدوية والإصلاحات المنزلية التي يقوم بها الإنسان في بيته، في كتابه «الفكر الوحشي» ، من خلال الموازنة بين الفكر العلمي الحديث وما يسميه الفكر الأسطوري الذي كان سائدا في ما يسمى الشعوب البدائية. يرى أن الفكر الوحشي يصطنع حقائقه وفقا لما يتوافر بين يديه من إمكانيات وفرص، طبعا مثل هذه الحقائق تظل محدودة، إلا أن هذا هو أفضل ما لديه. أما الفكر العلمي فيذهب إلى أبعد من ذلك بكثير ، معتمدا على تعدد الوسائل والإمكانيات. لكن ستروس لا يتردد في تفنيد فكرة أن هذين الفكرين يعبران عن مرحلتين أو مراحل من تطور المعرفة، بل هما منهجان يظلان قابلين للمقاربة، وهما على قدم المساواة في إنتاج المعرفة. (المترجم)

فمن جهة، لا يستطيع، بالفعل، الملاحظ (أو المحلل) أن ينفصل، كلية، عن الملاحَظ (موضوع الدراسة)، إذ ليس هناك انفصال بين هاتين الهيئتين، بل ترابط بينهما. هذه الملاحظة لا تنسحب فقط على اللسانيات أو السيميائية وبل أيضا على مجموع العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية؛ ومن جهة أخرى، نلاحظ بيسر أن اللغة اليومية تصلح لأن نستعملها **كميتالغة**، على الأقل في جزء منها، حتى وإن لجأنا إلى مفاهيم تميل إلى أن تكون أكثر صرامة، بحيث تتقلص معانيها حتى تصبح وحيدة المعنى إن أمكن ذلك، وهو شأن التحليلات التي سنقترحها لاحقا.

منذ عشريتين أو ثلاث، لا أحد يجهل أن السيميائية الفرنسية تركز على العلاقات بين العلامات و على المعنى الناتج عنها، بينما تشدد "السيميولوجيا" (أو السيميائية الأنكلوسكسونية) على المماثلة والتصنيف ونمذجة العلامات، مولية عناية أكثر لأشكال الاتصال وللقنوات التي يعتمدها. طبعا، فالمنظوران لا يتناقضان، بل العكس، فإنهما، وفق مقاربتنا، لا يمكنهما إلا أن يتكاملا، مثلما سنراه فيما بعد.

لنوضّح، بالمناسبة، أهمية التمييز الذي نود أن نضعه بين **الاتصال والدلالة**: في الحالة الأولى، نفترض، على الأقل، (وجود) مرسل، رسالة ومتلق؛ بينما ليس الأمر كذلك حينما يتعلق بالدلالة. لنقدم هنا مثالا متداولا.

لتكن اللافتة "صيدلية": بإمكاننا أن نرى فيها رسالة مبتعثة من طرف مالك الصيدلية (المرسل: الصيدلي) نحو مرسلين متوقعين (المتلقون: الزبائن). الآن إذا عاينت حالة السكة الحديدية في إيطاليا وأدركت أن العربات المتوجهة نحو المناطق الجنوبية هي في الغالب في حالة خربة عكس العربات التي تسير في شمال البلاد، هل ما زال يمكنني الحديث عن اتصال؟ هل تنطوي هذه الحالة الأخيرة على رسالة مبتعثة من المجتمع X "يود (من خلالها) أن يقول إجمالا للمسافرين: للمناطق الفقيرة عربات قديمة، وللمناطق الغنية عربات في حالة جيدة"؟.

يبدو جليا أن ليس هناك أية نية اتصال من طرف X؛ في مقابل ذلك يمكنني أن أؤكد أن توزيع العربات، للأسف، ليس مجردا من الدلالة، بل على العكس من ذلك. لنكتف الآن بالقول إن إشكالية المعنى أوسع بكثير وإن أدرجنا الاتصال (كجزء من الإشكالية) كما سنرى (خاصة فيما يتعلق بالتلفظ والتداولية): إنها (تشمل) عموما مجال ما ندعوه بالدلالة.

٢.٢. العلامة:

لنتناول الآن الإشكالية العامة للعلامة (باللاتينية σημειου) إن لمصطلح العلامة– أو بالأحرى تأويله– تاريخا طويلا يعود إلى العهود القديمة. وليس من مهمتنا أن نتناول هنا عموم هذه الإشكالية ذات البعد الفلسفي ابتداء[] (يمكننا العثور على ذلك بسهولة في كتب ومقالات متخصصة) ولا حتى أن نلخّص مراحلها الرئيسة خلال قرون، ولكن فقط، سنحاول– في هذا المقام– أن نعرض وبأبسط الأشكال الممكنة اشتغال العلامات في علاقاتها البين– ذاتية، وبشكل أوسع، داخل الحياة الاجتماعية، كما يتقبلها واقعيا عالمنا الغربي المعاصر (سواء أتعلق الأمر باللغة اللسانية أم غير اللسانية).

هدفنا إذن سيكون النظر فيما هي العلامات، معتمدين في ذلك على معارفنا الحالية، الأمر الذي يتيح لنا أن نتعرف عليها كوحدات مستقلة، وأن نعاين مختلف الأشكال التي يمكن أن تتلبسها والعلاقات التي (تتعهدها) فيما بينها. فالعلامات هي التي توضح إدراكنا لأنفسنا وللعالم– في مستوى معين من الوصف فقط (بالطبع لن يكون ذلك من طبيعة أنطولوجية[]، وإنما علائقية).

فالمعنى والاتصال سيكونان بالنسبة إلينا الرهانين الأساسين للمقاربة السيميائية، حتى وإن

[]– بإمكاننا أن نعود إلى المقالة المعنونة بـ "المعنى" في الموسوعة الفلسفية العالمية، المفاهيم الفلسفية، القاموس، الجزء ٢، باريس، PUF، ١٩٩٠.

[]– لا يهتم الكاتب بما تكونه العلامة من جوهر ذي خصائص ذاتية، وإنما بما هي في علاقتها ببقية العلامات. (المترجم)

شكلا، فضلا عن ذلك، (ومن منظور مختلف)، جزءا من الأهداف التي تتوخاها علوم إنسانية أخرى.

في الواقع، إن القارئ يعتقد أن إلغاء كل العلامات – من كل المجالات مهما كانت- يعادل زوالا ليس فقط لكل اتصال بين- ذاتي، ولكن أيضا لكل فكر، وفي النهاية، للإنسان ذاته.

لنذكّر بالمناسبة أنه إذا لم تكن هناك علامات كونية (مشتركة بين كل الثقافات في العالم)، فهناك على الأقل نزعة كونية فيما يتعلق بلجوء الإنسان إلى العلامات. وهو اعتراف (إقرار) بأن لا شيء مما هو إنساني يمكنه الإفلات من عالم العلامات، حتى وإن وجدت طرائق أخرى – غير سيميائية- لإدراكها: وهي النقطة التي سنعود إليها فيما بعد.

لكن كيف لنا أن نقارب دلالة العلامة؟، نعلم أن أي مصطلح فرنسي يمكن أن تتنوع معانيه وفق السياق الذي يتموضع فيه، مثلما هو حال الصوت (أو الفونيم) /I/، فهو ليس ذاته تماما إذا ما كان في بداية الكلمة، أو وسطها، أو نهايتها؛ ونفس الأمر نجده في المثال التالي: إن شكلا ما في مشهد من شريط مرسوم، لا يمكنه أن يفيض معنى إلا بالنسبة لبقية الأشكال التي تحفّ به: إذا ظل متفردا بمعزل عن بقية الأشكال،، سيظل تأويله عسيرا، أي لا يمكن تحديده أو البت فيه.

نعتقد بالفعل أنه عن طريق التعرف على العلامات، ابتداءً، ثم على مواقعها وتفاعلاتها، و**تحريكها وتأويلها** نستطيع أن نصل إلى المعنى، إلى الدلالة، إلى فهم كل الأشياء (واقعية أو متخيلة)، وكل الممارسات (سواء أكانت تداولية، أو ذهنية أو هووية)، باختصار، كل ما يشكل ثقافة ما. في الواقع، إن مختلف الأوجه – التي ألمحنا إليها آنفا- تقع على المستوى نفسه: فالإجراءات التي تسمح بالإمساك بالدلالة لا يمكن أن نضعها موضع التنفيذ بشكل ملموس إلا بالمجاورة.

وعليه، فالتعرف على علامة يفترض مسبقا ليس فقط مقارنتها على الأقل ضمنيا بعلامات أخرى – إن على مستوى **الدال** أو **التعبير**، وفق اصطلاحات علوم اللسان، (= الحامل المحسوس، من طبيعة سمعية أو بصرية، مثلا، والتي تظل قابلة للتأويل) أو على مستوى **المدلول** أو **المحتوى** (= ما هو مفهوم بشكل تلازمي في سياق معطى)- ولكن أيضا وضعها في وضعية تلفظية (وضعية فعلية لتلفظ فردي و/أو جماعي).

على سبيل المثال، يتوجب على الشخصين اللذين يتبادلان الحديث حول موضوع ما، أن يتقاسما عالما لسانيا مشتركا، صوتيا (عبر الأصوات والنبرات الخاصة بلغة طبيعية معينة) وتركيبيا (بوضع العلاقات المتعارف عليها من قبل المتخاطبين موضع استقصاء) و دلاليا (إذ ذات المعنى يعطيه المتخاطبان، على الأقل بشكل تقريبي، للكلمات المستعملة في المحادثة ولصياغاتها المعتمدة). كل هذا يفترض مسبقا أيضا أن يمتلك هذان الشخصان، من جهة أخرى، مكتسبات مشتركة تتجاوز الخطاب الكلامي المتحقق فعليا إلى معرفة السياق (القائم على الافتراضات والمضمرات والإيحاءات الاجتماعية، وحتى استعمالات شخص ما للغة حسب أسلوب خاص به، الخ). في الحالة العكسية، طبعا لن يستطيع الشخصان أن يتفاهما، لأنهما ليسا «على نفس الموجة»: فإذا تجاوزنا الجمل المستعملة إلى الخطاب، فإن على الأخير أن يمتلك، في مجموعه، معنى شاملا، متناسقا يطرح الموضوع نفسه ويتجنب الحديث المتهافت - إلا إذا تعلق الأمر بلعبة متفق عليها-. من الطبيعي أن تبرز محادثة كهاته عناصر لا تقل أهمية عن المعطيات اللسانية الصرفة، على سبيل المثال، كل ما يتعلق بالإيماء، والحركات والمسافة الفاصلة بين المتخاطبين (أثناء الحديث قد نقترب من الآخر أو نبتعد عنه، حسب رغبتنا في أن نسمعه الكلام أم لا)، الخ.

إن أحاسيسنا (المنبثقة من الاستبطان، من وجهة نظر «داخلية»: على سبيل المثال، حين نشعر

بحالة من الارتياح أو الضيق في لحظة ما) أو إدراكاتنا (المتعلقة باستكناه العالم «الخارجي» المحيط، مهما تعددت أنساقها: السمعية، البصرية، اللمسية، الذوقية، الشمية) هي في البدء تأويلات نعطيها لكل ما يحدث لنا (ماديا أو نفسيا)، لكل ما نكابده داخليا أو نعانيه جسديا. فمن البديهي أن تكون هذه النقطة أيضا منطلقا لينفتح (أمامنا) طريق الاتصال بين- ذاتي والاتصال الاجتماعي الذي يراهن، هو بدوره، على **السلوكات** (من قبيل/الفعل/) **والأهواء** (أو الحالات النفسية من قبيل /الكينونة/).

من المسلم به ومن دون صعوبة تذكر، أن جهل الفرنسي الذي يقيم ببلاد أجنبية، للغة تلك البلاد وأعرافها وسلوكاتها الخاصة، سيجعله يشعر، فجأة، و كأنه مهمش؛ حتى الأشياء المادية البحتة التي تتعلق بالحس والإدراك، فإنه لا يستطيع تأويلها من ذاته إلا عبر الأسنان الدلالية الفرنسية الوحيدة التي يمتلكها. وبما أن تحري المعنى هو من مقومات الإنسان، فإن هذا الفرنسي لن يستطيع أن يتجنب دخول لعبة الترجمات، إلا إذا اختار أن يقصي نفسه إراديا من كل هذا العالم الاجتماعي والثقافي الجديد الذي يحيط به.

على سبيل الطريفة، لنذكر، مثلا، وصفا مقتطفا من يوميات في أرض البرازيل (١٥٥٧)□ حيث قدّم جون دو ليري□، أول "أنتروبولوجي" مثلما يشهد بذلك نظراؤه اللاحقون، لقرائه باللغة الفرنسية حيوانا يجهلون وجوده إلى ذلك الحين. من أجل هذا الغرض، فهو مضطر أن يردّ المجهول إلى المعلوم، الجديد إلى القديم، أن "يترجم" إلى لغتنا الطبيعية ("نصف بقرة ونصف حمار") اسم الحيوان ("Tapiroussou") الذي لا ذكر له طبعا في المصطلحية الحيوانية الفرنسية.

لوصف الحيوانات المتوحشة في بلدهم الذي يدعونه ب ـSoo، أبدأ بالتي هي صالحة للأكل.

□- منشورات باريس، ١٩٥٧.

□- رحالة فرنسي، ولد عام ١٥٣٦، وتوفي عن عمر يناهز ٧٧ في عام ١٦١٣ (المترجم)

فأول حيوان وأكثرها شيوعا هو ما يدعونه بـ ("Tapiroussou"): فهو ذو شعر محمرّ طويل، فهو تقريبا بحجم وبدانة وشكل البقرة: إلا أنه لا يمتلك قرنين، فرقبته أقصر، وأذناه متدليتان و أكثر طولا، وساقاه ضامرتان ونحيلتان، وقدم لا شقوق بها إلا أن لها ذات شكل قدم الحمار. يمكننا إذن القول إن هذا الحيوان هو نصف بقرة ونصف حمار، بما أخذه من هذا وذاك. (ص.٢٣٩).

٣- مقدمات للولوج إلى المعنى:

من الواضح، على سبيل المثال، أنه في مجال «المدرَك»، في مجال ما هو تصوري بحت (كحقل الفلسفة، والرياضيات والمنطق..)، لا نستطيع أن «نفكر» عمليا من دون علامات، من دون كلمات، من دون خطاطات، وحتى من دون صور: أن نفكر، ولو «تفكيرا ذهنيا» صرفا إذا ما جاز لنا هذا الإطناب، فإننا سنستعمل مجموع علامات تتفاوت في حسيتها، وسنلجأ إلى مفردات اللغة، وإلى المصطلحات أو إلى التمثلات التي هي، في العموم، تواضعية، والتي من غيرها لن تكون أية معرفة، أو بالأحرى لن يكون أي تحصيل للعلم ممكنا.

طبعا، غالبا ما نقول-خاصة في الأدب والفلسفة- إن ما يعز عن الوصف، تعريفا، لا يمكن أن يُعبّر عنه، إذن هو غير قابل لأن يبلّغ (على الأقل على المستوى اللغوي): وهذا ما تعنيه حرفيا جملة (يعز عن الوصف). والواقع، إذا ما استشعرنا أمرا غير قابل للوصف، إذا ما افترضنا وجوده المسبق، فلأنه، قبلا، يعتمد على حامل مناسب — من قبيل الإحساس (ذو خصيصة انفعالية) أو الإدراك (من طبيعة حسية) -: على سبيل المثال، في المجال الجمالي حيث إن تأويل لوحة زيتية ما يثير هذه الحالة النفسية أو تلك، ولنفترض حالة الحبور، واللذة، والنشوة، والتي وإن لم تكن بالضرورة قابلة لأن يعبَّر عنها، إلا أنها «واقعية».

في نطاق آخر، الأكيد أن حالة التقوى الصوفية ليست من قبيل المعبّر عنه، إلا أنها، كتجربة، تضع بشكل أو بآخر الإنسان موضع التجلي. في كل هذه الحالات، إن قضية **الأحاسيس** المعتلجة داخل

الإنسان (استبطان الذات مقابل استكناه العالم الخارجي) هي التي أضحت مطروحة على بساط البحث، وهو ما سنعرض لها لاحقا في دراستنا الوجيزة لإجراءات التلفظ.

نعلم أيضا، أنه ومنذ الأبد، يعسر علينا جدا أن نحلل بدقة شعورا ما – في شكل لغوي-: فكل المترادفات المعتمدة – كالتي تقترحها القواميس- لا تشبع نهمنا. وهو إقرار بأن هذا الشعور يظل في الغالب "غير معَبَّر عنه" في الواقع. حتى في مثل هذه الحالة، فإن لهذا الشعور علاقة بعنصر مستقى من عالم خارجي، بحيث يشكل هذا الشعور إزاءه رد فعل الذات (فردية أو جماعية): مثلما يحدث حينما يثير لقاء شخص بآخر ما يدعى بـ "الحب من أول وهلة». تعريفا، إن ما يعز عن الوصف لا يمكننا تدوينه بالكلمات، ولكن ذلك لا ينفي، إطلاقا، تعلقه باللغة، وبالتالي بالمقاربة السيميائية. حتى فيما تعلق بالأحاسيس الأكثر جوانية، فإن الإنسان يظل خاضعا لإكراهات اللغة. ومن دون هذه اللغة، فإنه لا وجود للرمزية، وبالتالي لا وجود للإنسان أيضا.

هذا يعني بكل بساطة، أن هناك لغات، وإن لم تفصح عن ذاتها بالكلمات، مع ذلك، فإنها حاملة للمعنى؛ ومن الأمثلة الأكثر ابتذالا، على ذلك، الأشرطة المرسومة[*] المجردة من الكلمات. الأكيد هنا، أنه يمكننا أن نعثر لهذه الأشرطة على مقابل لساني، إلا أن كتابة ذلك المقابل اللساني، و إن كانت بدقة متناهية، غير أنها تظل فقيرة جدا من وجهة نظر المعنى، وذلك قياسا بالمتعة التي نستشعرها أثناء القراءة البصرية لهذا لشريط من الرسوم أو ذلك، من دون عناصر لسانية. من هذا المنظور، فإن لوحة رسم، على سبيل المثال، "غير قابلة للسرد"، لا نستطيع أن نحكيها لكفيف، لا سيما إذا كانت "غير تصويرية". من جهة أخرى، كل فعل مادي ينتمي إلى المحسوس هو بداهة حامل للمعنى، سواء بالنسبة لمن يأتيه أو بالنسبة لمن يراه أن يكون على علم به. بشكل أوسع، كل معطى قابل للإدراك يحثنا على أن نعثر له على معنى يناسبه: حتى النظر إلى مشهد طبيعي بسيط لا يمكنه أن يمر دون أن يترك فينا انطباعا معينا، دون أن يثيرنا فينا حالة نفسية خاصة؛ ومن باب أولى، فإن بناء بيت أو ترتيب أشياء في غرفة ما له معنى: حتى الفوضى ليست مجردة من المعنى. في الحد الأدنى، كل ما هو موجود أو ما يمكن تخيله في إطار عالم سوسيوثقافي معين، يمتلك معنى، أو على الأقل، هذا ما نفترضه مسبقا، وبعفوية. حتى ما هو من قبيل " العجيب" أو الذي يبدو "شاذا" لا يخلو من الدلالة، وإن كان ذلك عن طريق سؤال المعنى الذي يطرحه: من الواضح، مثلا، أن "المجهول"، "الخارج عن المألوف" أو "غير المعقول" هي ألفاظ معروفة جدا، قابلة للتأويل دلاليا.

من وجهة النظر هذه، كل المعارف، كل الثقافة، كل الأحداث، كل الحياة، فردية كانت أم اجتماعية، مرتبطة بالبحث عن المعنى الذي يبدو أن الإنسان قد جُبِل عليه. نرى جيدا أن كل العلوم (إنسانية أو غير إنسانية)، كل المعارف (علمية أو غير علمية: كعلم الفلك وعلم التنجيم) هي علوم تسعى للبحث عن الدلالة، عن المعنى، عن "طريقة سير" ذواتنا وسير العالم الخارجي: سنرى فيما بعد ما يميز علوم اللسان والسيميائية، على الخصوص، عن حقول البحث الأخرى.

لنحدد قبلا أن ليس للسيميائية موضوع بحث إلا الأشكال التي يتجلى عبرها المعنى. إذا كان كل شيء في العالم علامة، فهو (في الحقيقة) أكثر من ذلك: إن "جرحا" ما، على سبيل المثال، يمكن أن نؤوله كألم يعانيه من أصيب به، لكنه، في ذات الوقت، أكثر بكثير من عَرَض، مثلما تشهد به الرعاية الطبية التي يجب أن نحيط بها هذا الجرح على المستوى الفسيولوجي، حتى نتجنب كل مضاعفة للضرر، وذلك بمعزل عن الألم. ذلك الضرر الذي يمكن أن يكون أكثر خطورة من حيث النتائج من الألم الذي يشعر به المصاب مؤقتا.

---

[*]- يتعلق الأمر بشريط مرسوم خال من الفقاعات الحوارية أو المربعات الوصفية. (المترجم)

إن السيميائية التي تهدف إلى (معاينة) العلامات، لا تبدِ موقفا من حقيقة الأشياء المتعلقة بالإنسان وعالمه ولا من طبيعتها **وجوهرها** وأصلها ومآلها: كل ذلك من شأن علوم المادة والطبيعة والحياة والإنسان أيضا (علم النفس، علم الاجتماع، التاريخ، الاقتصاد.. الخ). وحتى نعود إلى مثالنا السابق، من الواضح أنه إذا كان "الجرح" الظاهر هو بالنسبة للمريض متعلقا بالدال، وإذا كان "الألم الذي يشعر به هو من قبيل المدلول، فإن السيميائية لا تستطيع أن تحدد وبشكل جوهري ما «الألم». على الأكثر، ستقابله باللذة، من حيث سلبيته وإيجابيتها (وفقا للقيم والتصورات والأفكار المسبقة السائدة)، وبالاعتماد على مفهوم **الانفعال** (الذي يتمفصل وفقا للثنائية انبساط مقابل انقباض)، كما أوردناه سابقا.

وعموما ليس من شأن علوم اللسان أن تبدي رأيها، على سبيل المثال، في مجال علم الوجود (أنطولوجيا) الذي هو من اختصاص الفلسفة، أو علوم الحياة أو الطبيعة..الخ. على الأكثر، يمكنها أن تشير إلى **المرجع**، أي إلى الحقيقة خارج اللسانية أو خارج السيميائية التي يمكن أن يحيل إليها خطاب ما أو على العموم لغة ما، في شكل واقعي (مثل: السيرة الذاتية، الفيلم الوثائقي)، أو متخيل (رواية، رسم، الخ).